

سارية الجبل قائد فتح فارس

٦

كان من أشد الناس إيماناً، ومن أكثرهم جهاداً.. وكان من صحابة رسول الله ﷺ، حيث أدرك الإسلام وآمن به مبكراً وتشرب مبادئه وقيمه.. وكان ممن جاهد وكافح ونافح في حياة النبي ﷺ، أو بعد مماته في عصر الخلفاء الراشدين، وكان من السابقين الذين رفعوا راية هذا الدين الحنيف في الجزيرة العربية أو في غيرها من الأمصار التي دخلها الإسلام. وقد أبلى بلاءً حسناً في ذلك إبان خلافة الفاروق عمر رضي الله عنه، حين قام بفتح بلاد فارس، فكان هذا الصحابي الجليل من أعمدة جيش المسلمين. وكان إلى جانب كونه فارساً مغواراً لا يشق له غبار كان شاعراً مرهف الحس.

ذلك هو سارية بن زئيم بن عمرو بن عدى بن بكر بن كنانة أشد الناس حضراً ومدينة. اختلفت الروايات في شأن تاريخ ميلاده. فمنها ما يرى أنه ولد قبل الهجرة، ومنها ما يرى أنه ولد قبل ظهور الإسلام، ولعل الرأي الثاني هو الأرجح، أي ولادته قبل ظهور الإسلام وإلا فكيف تكون إنجازاته التي تمت في صدر الإسلام وهو لم يزل طفلاً صغيراً؟ كيف يكون مثلاً مسئولاً عن جانب من القوات في فتح فارس إذا لم يكن من قبل قد تدرب على فنون الحرب وإدارته وقيادته، وهو ما لم يتوفر لطفل صغير ولّد بعد الهجرة.. ثم كيف يمكنه أن يتدخل في أمر قد اتخذه النبي ﷺ، وهو إهدار دم ابن شقيقه، لأنه قال شعراً رثى فيه قتل بدر من المشركين، وهجا رسول الله ﷺ، وأن يقبل النبي ﷺ وساطته فيصفيح عن ابن أخيه الذي أعلن إسلامه، لو لم يكن سارية رجلاً ناضجاً، له من الفضائل والأعمال في سبيل الله ما يجعل النبي ﷺ يقبل وساطته.

إذن فالأرجح أنه ولد قبل الإسلام، وأنه أسلم وحسن إسلامه قبل الهجرة أو بعدها، وهو فى سن تسمح له باتخاذ هذا القرار، الذى يجعل أقرب الأقربين عدوآ له..

أمّا؛ لماذا اختصر اسمه الطويل إلى اسم «سارية الجبل» وعُرف به فى التاريخ الإسلامى؟ فإن لذلك قصة حقيقية، ومصدر صدقها أنها وردت فى الروايات والمصادر والأخبار الموثقة، بحيث لا تختلف واحدة عن غيرها، وإن كانت فى تفصيلاتها ووقائعها أغرب من الخيال، وقد شاهدها أو عاصرها أو سمع بها وقالها نفر من الصحابة الأجلاء، رضوان الله عليهم. وأن الذين عُنُوا بنقلها نفرٌ من أكثر المؤرخين دقة وتمحيصاً، وفى مقدمتهم ابن الأثير، والطبرى، والبلاذرى، وأن هذه القصة لا تختلف فى رواياتها من الأقدمين أو المحدثين. مما لا يدعو مجالا للشك.

القصة تبدأ حيث قصد «سارية الجبل» بَلَدَيْنِ من بلاد الفُرس، هما «فسا» و«دراجمرد»، فلما انتهى إلى المكان الذى يعسكر فيه الفُرس نزل عليهم بقواته وحاصرهم، وأطال حصاره لهم، فما كان منهم إلا أن طلبوا مدداً، فأتى إليهم أكراد فارس، وكان أفراد هذه المدد من الكثرة بحيث جعلوا قوات الفُرس تحيط بقوات المسلمين من كل جانب.. ويتغير الموقف، فيصبح سارية وقواته إزاء هذا الحشد من القوات غير المتوقع فى وَضْعٍ حرج. فما هى إلا فرصة مواتية من فرص الحرب حتى تطبق هذه القوات الكثيرة العدد على المسلمين وتفنيهم عن آخرهم.

وفى الجانب الآخر فى المدينة المنورة.. أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، يستولى عليه قلق شديد، مصدره أن هذه القوة بقيادة «سارية» لا قبلَ لها على مواجهة هذه الأعداد الكبيرة من قوات الفرس، وهكذا يشغله أمر هذه القوة الإسلامية المعرضة للهلاك، حتى إذا هجع إلى النوم رأى فيما يرى النائم انبلاج الصبح، وابتداء المعركة الفاصلة بين المسلمين والفرس، وموقف الفريقين، وإعداد كل فريق، وأن المسلمين متمركزين فى صحراء، إن أقاموا فيها أُحيط بهم من كل جانب، فوقعوا فى مصيدة وحصار قد تكون فيه نهايتهم المحتومة، وإن هم تحركوا من مكانهم ولجئوا إلى جبل هناك جعلوه حائطاً يحمى ظهورهم لم

يُهاجموا إلا من جهة واحدة، وربما كان ذلك محققاً لنصرهم، أو على الأقل نجاة نفر غير قليل منهم.

واستعاذ بالله الفاروقُ عمر رضى الله عنه من هذه الرؤيا التى ضاعفت من قلقه على قواته، حتى إذا حَلَّ موعد الصلاة، أمر مناديه أن ينادى المسلمين: «الصلاة جامعة»، ثم قام فى الناس خطيباً مستهلاً خطبته بقوله: «أيها الناس؛ إني رأيتُ هذين الجمعين - يقصد المسلمين والفرس - وأخبرهم بما رأى، ثم صاح فجأة وبغير مقدمات وهو مستمر فى خطبته: «ياسارية.. الجبل.. من استرعى الذئب ظلم» فالتفت القوم بعضهم إلى بعض مندهشين من عبارة أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه، تلك التى لم تكن لها مقدمات أو علاقه بما يقول، فلما فرغ من صلاته سأله برفق الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه: «ما شئ سَنَحَ لك فى خطبتك؟». ورد عمر رضى الله عنه: «وما هو؟». قال على: «قولك: ياسارية الجبل.. الجبل، من استرعى الذئب ظلم». قال عمر مندهشاً: «وهل كان ذلك منى؟»، قال على: «نعم» قال عمر: «ربما لأنه وقع فى خلدى هذه الساعة أن المشركين هزموا إخواننا فركبوا أكتافهم، وأنهم يمرون بجبل، فإن عَدَلُوا إليه قَاتَلُوا مَنْ وَجَدُوا وقد ظفروا، وإن جاوزُوا هلكوا.. فخرج منى ما تزعم أنك سمعته». لكن الغريب والعجيب حقاً أنه فى تلك الساعة أجمع سارية وَمَنْ معه إلى الاستناد إلى الجبل والتحصين به، وقاتلوا الفرس من جانب واحد، فظفروا بهم، وانتصروا عليهم، وقتلوا منهم - وهم فى أعدادهم القليلة - أعداداً كثيرة.

غير أن الأغرب والأعجب أنه عندما جاء البشير بالفتح والانتصار بعد شهر من هذا الحدث، ذكر لأمر المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه. أن سارية وَمَنْ معه قد سمع فى ذلك اليوم فى تلك الساعة، حين جاوزوا الجبل، صوتاً هو بعينه صوت عمر بن الخطاب بينهم بقوله: «ياسارية الجبل.. الجبل، من استرعى الذئب ظلم». فتوجهوا من فورهم إلى الجبل، واستندوا إليه، وكان لهم النصر.

ويذكر هذا المبشر بالانتصار الذى أرسله سارية إلى المدينة أن المسلمين قد استولوا فى هذه المعركة على مغنم منها سَفَط^(١) فيه جواهر، رأى سارية الجبل ومن معه من المسلمين أن يقدموه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذى أنقذهم فى ساعة العسرة قائلاً: «إن سارية والمسلمين استوهبوا هذا السَفَط بما فيه . . وجعله لأمر المؤمنين . .» وهنا تجهم وجه عمر رضى الله عنه وقال فى غضب بالغ: «لا، ولا كرامة، حتى تقدم على ذلك الحبذ . . فتقسمه بينهم».

وفى طريق عودته من المدينة إلى حيث يوجد سارية وقواته بفارس ومعه هذا السَفَط المملوء بالجواهر - كان الناس يسألونه: هل سمع ومن معه شيئاً يوم الواقعة؟ فكان يرد عليهم: «نعم سمعنا يا سارية . . الجبل وقد كدنا نهلك لولا أن نبهتنا هذه العبارة من أمير المؤمنين إلى الجبل فلجأنا إليه، واعتصمنا به، ففتح الله علينا . .».

هذه القصة استوفقت كُتَابَ السير قديماً وحديثاً، وقد علق عليها الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه «الفاروق عمر» بما يفيد صدق وقوعها، مبرراً ذلك ومؤكده .

ويبقى من هذه السطور فى معرض سيرة هذه الصحابى الجليل سارية الجبل سؤال، هو: كيف وصل إلى القاهرة ليتوفى ويدفن فيها؟

لعل إجابة هذا السؤال دعت الكثير من العلماء والباحثين إلى مزيد من التقصى والبحث فى الكتب القديمة . . حتى يثبتوا أن هذا الضريح الذى يعرفه العامة فى مصر بضريح ومسجد سارية الجبل، هو بالفعل ضريح هذا الصحابى الجليل، فتذكر الدكتورة سعاد ماهر فى تأريخها لمسجده: «إنه بالرجوع إلى كتب التاريخ والتراجم، لم نجد ذكراً لأحد منهم أن سارية الجبل الصحابى الجليل قد وفد إلى مصر، واستقر بها، ومات ودفن فيها . . ولكن من ناحية أخرى لا يوجد ذكر فى هذه الكتب لمكان آخر استقر فيه «سارية» حتى توفى فيه ودفن . وما يؤكد ذلك أن

(١) السَفَطُ: وعاء توضع فيه الأشياء.

ابن جبیر يذكر عند حديثه عن مشاهير الصحابة في مصر، بأن سارية الجبل رضى الله عنه قد جاء مصر واستقر فيها، محدداً قبره فيقول: «إنه يوجد بسفح المقطم بالقاهرة. وهو بالفعل المكان الذى يعرفه العامة والخاصة بأنه يخص سارية الجبل، الصحابى الجليل رضى الله عنه. وهو ما قامت بالتأريخ لمسجده وضريحه الدكتور سعاد ماهر فى كتابها عن مساجد مصر وأولياء الله الصالحين، مما يؤكد بصورة أو بأخرى تواجد رفات هذا الصحابى الجليل هنا بمصر كغيره من الصحابة الذين وفدوا إلى مصر لسبب أو لآخر.
